الرؤى الثانية

المياه العميقة

رشا شمس

"بعضُ النِّهاياتِ مُرَّةٌ كالقهوة، ولكنَّها تجعلكَ شخصًا
مُستيقظًا، مُتنبهًا"

رشا شمس

المياه العميقة

أمام ذلك البرواز ذي الطراز الأنيق المُتميز جدًّا، والذي يحتضن في إجلال واحتواء مرآتها الغالية، وقفت " لُبنى " تتفرس وجهها بعناية، وتُفتش بدقة عن آثار السنين، وإذا ما كان الزمن قد ترك بصمته على ملامحها الجميلة، أم أنه قد عجز عن إصابتها بما تكره، ففي هذا الوقت من كل صباح تقف لتأمُل صورتها المنعكسة في مرآتها، فتطمئن إلى جمال قسماتها، ومرمرية بشرتها، وأناقة ملبسها.

تحرص على لمحة الكبرياء الممزوج بالرُقي، والتي يَشِي بها أنفها الدقيق المرفوع بعنفوان، وتُسوي شعرها بيديها، وتُنفث قطرات من عطرها الباريسي المُفضل على وجهها وتخص عنقها، ورسغها بالكثير من نفحاته، ثم تحمل حقيبة يدها، وترفع تلك التي تحتضن حاسوبها على كتفها برشاقة، وتتهيأ لمُغادرة شقتها مُبتسمة، وهي تسمع كالعادة كل صباح صخب الأطفال قادمًا من شقة " سلمى " شقيقتها، والتي تسكن مواجهة لها في نفس الطابق من البناية.

تراها كل صباح في نفس الموعد وهي تودع أطفالها الثلاثة إلى مدارسهم، تقف على باب شقتها مهوشة الشعر، ضيقة الصدر، في عجلة ومزاج متعكر تشكو ضيق الوقت، تنهر أحد أطفالها عن شيء، وتُحذر آخر من شيء، وتُقسم للثالث أن يفعل شيئًا ولا ينساه كعادته.

هكذا تراها كل صباح فتبتسم لها في إشفاق، وتتبادل معها بعض الكلمات العابرة الروتينية التي لا جديد فيها، ثم تهبط السلم وهي تغبط نفسها على قدرها الذي اختارته بكل دقة، وعلى حياتها الهادئة المضيئة مقارنة بالحياة الروتينية الكئيبة لشقيقتها الكبرى "سلمى"، والتي تكبرها بثلاثة أعوام فقط، ولكنها تبدو الآن أكبر منها بما لا يقل عن عشر سنوات.

فلسلمى حياتها ذات السلسلة المُتعاقبة المُهلكة، من زواج وحمل وولادة، وأطفال وأمراض ومدارس، وواجبات وتعقيدات لا تنتهي، دون سعادة حقيقية، أو لذة استمتاع تلمس روحها الشقية، المُنهكة في دوامة أعمال منزلية لا بداية لها ولا نهاية، يتبعها أُمسيات ثقيلة بين مشاهدة للقنوات الفضائية ذات النسخ المتكررة من الضيوف والبرامج، وتجهيز العشاء وترتيب الجداول المدرسية وغيره.

صراع أزلي تُصبح معه جسدًا هامدًا يتحركُ آليًا، فتكون أمنيتها الخالدة كل ليلة أن ينام أطفالها في موعدهم بعد طول عناء، لتلتقط أنفاسها بعض الوقت، وتستعيد إحساسها بنفسها وبالحياة، مُمنية حالها بالاستمتاع بكوب الشاي بلبن، إدمانها البسيط اللذيذ، والذي تهرول تصنعه فور استقرار أطفالها في غرفهم وسكون عالمهم الصاخب، المُستمر في الدوران دون توقف.

وما تكاد سلمى تصنع مشروبها المفضل حتى يعود " حسام" زوجها إلى البيت مُنهكًا من عناء يوم عمل طويل، آملًا في وجبة عشاء ساخنة، رافضًا لتناول البيض والجبن وما يُدرَج تناوله عادةً في مثل هذا الوقت من الليل، فترجع إلى المطبخ ناقمة أو راضية لتُعد له ما يطمع فيه، فإذا بكوب الشاي بلبن أصبح باردًا مُملًّا ككل ما حولها، فترفض أن تصنع لنفسها غيره، وتتوجه مباشرةً إلى سريرها لتتكور فيه، تدفن رأسها المُجهد في وسادتها تبغي النوم، كرغبة ملحة في رفع العبء عن ذاتها، أو كاستجداء للرحمة ممن يُحيطون بها.

فإذا بزوجها يتعجب مما آل إليه حالها، ويتساءل بتهكم عن أسباب ضيقها وتعبها وهي الجالسة طوال اليوم في بيتها ومملكتها، فلا عمل يؤرقها ولا مواصلات تمتهن البقية الباقية من آدميتها، فما الذي يُكدرها إذن، وأي عناء ذاك الذي تتشدق به آناء الليل وأطراف النهار؟

ولم لا تتهيأ لمُجالسته ولمُلاطفته وقضاء الوقت معه؟ أتراها نسيت أم أنها تتناسى تلك العشرات من قمصان النوم الشفافة الملونة، التي تقف متراصة في تنافس وجُرأة في دولابها؟ ينتظر أحدها أن تخُصَّه بالاختيار فتلامس خيوطه جسدها الخمري.

تسير مُتمايلة بدلال وخفة فوق سلطان الهوى، تدَّعي سيطرتها على حواسها، ثم تتهاوى دفاعاتها إذا ما لمسها حسام،

فتسري حمم النشوة فيها، وتهرول إليه فيُلبيان معًا نداء الطبيعة، لكن عادةً ما تذهب أحلام حسام هباءً، وتتملكه الدهشة إذا ما لمس فتورها أو إعياءها ومُغالبتها للنوم، فينفجر ساخطًا لاعنًا شاكيًا من عدم اعتنائها به.

وقد لا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل يشكوها إلى أمها والتي تأتي صباح اليوم التالي من مسكنها البعيد نوعًا ما، تتكبد عناء المشوار لتعقد جلسة الصلح التقليدية بينهما، فتستدعي الأم " لبنى" لتُعينها على الأمر، والذي يبدو شائكًا في بعض الأحيان، نمطيًّا في أحيانٍ أخرى، فتُسرع " لبنى" إلى شقيقتها كارهة تتعجل الانصراف لتلحق بموعد عملها في الفترة المسائية، وتتعجب لجرأة حسام وافتقاده للحياء حين يتطرق بالحديث أو بالشكوى إلى أسرار غرفة النوم، وما لا يصح الحديث عنه أمام الغير.

يمتهن شقيقتها ويتهمها بالبرود وعدم العناية بنفسها كامرأة متزوجة تشارك رجلًا في الفراش، فتبكي سلمى وتشرع تدافع عن نفسها، وتعتذر مُتعللة بأعمال البيت الشاقة ومطالب الأطفال التي لا تنتهي، ثم تحتج على زوجها حسام لتركها وحيدة سجينة البيت طوال أيام الأسبوع، بينما يُسارع هو إلى أصدقائه كل مساء فور انتهائه من العمل، ليستمتع ببعض وقته معهم ويجدد نشاطه

بصحبتهم، فيعود إليها في الحادية عشرة معتدل المزاج، راجيًا أُمسية لطيفة.

كيف له أن يتوقع ممن قضت يومًا بهذا الشقاء والملل أن تكون مثله راخية البال، رائقة المزاج، طالبة للحب بل وساعية إليه أيضًا؟!

فيحتد حسام ويُزمجر ويؤكد أحقيته كرجل في الترفيه عن نفسه الشقيانة في العمل، اللاهثة الراكضة خلف لقمة العيش كحال جميع الأزواج، ليوفر للبيت ما يلزمه، وليضمن لمن فيه ذاك المستوى من المعيشة، دون الإخلال بالقائمة الطويلة من الالتزامات والجمعيات والأقساط وما يُستجد، فما الضير من ساعات يقضيها مع الأصدقاء يُغالب بها سأمه، ويزود جسده بالحماسة، فيأتي زوجته ليلًا مُقبلًا عليها طالبًا ودها، أم أنه قد صار جوادًا تمتطيه سلمى لتصول به وتجول في دروب الحياة، دون أن يحق له التبرك ببعض وقته وطلب راحته.

ثم يقف يتشدق بأن مهمة البيت والأطفال مهمة موكلة إلى المرأة، وهذا هو شغلها الشاغل وغاية وجودها في الحياة، فلكل منهما ساحته ونضاله، فتبكي "سلمى" حالها، وتنطلق الدموع تجري على وجنتيها تشكو إهماله الشخصي لرغباتها وهمومها، وقلة أوقات الترفيه والنزهات في حياتها، وتُذكره بتضحيتها الغالية حين استقالت

برغبتها من عملها في وزارة السياحة، وتنازلها الكريم عن مكانتها العملية، وما كانت قد حققته من مجد شخصي على الصعيد المهني.

وهكذا تدور عجلة دولاب المشكلات التقليدي، وتستمع الأم في انتباه كامل للأمر خشية أن يتطور الأمر ويقع ما لا يُحمد عقباه، بينما تختلس " لبنى" النظر إلى ساعتها وتجود ببضع كلمات محايدة تتجنب بها إغضاب أحد الطرفين، وينتهي التحقيق والمحاكمة دائمًا برجاء كل طرف أن يهتم أكثر باحتياجات الطرف الثاني، وتختتم الأم الجلسة بعبارتها التوفيقية الخالدة: يلا قومو بوسو راس بعض، النبي إنتوا محسودين، إبقي بخري البيت يوم الجمعة ساعة الصلاة يا سلمى ورشي ملح في الأركان.

فينفذ "حسام وسلمى" المهمة بعد قليل أو كثير من الممانعة، فتلمع نظرة الرضا والقناعة في عين الأم، وتشرع سلمى تقدم للجميع عصير الليمون المُحلى بكثير من السكر كعلامة على إشهار الصلح الطافي على السطح، بينما يستقر السخط والخمول وكثير من الغضب في الأعماق، لا أحد ينتبه إلى التراكمات، ولا أحد يلتفت إلى ما في داخل المياة العميقة.

تمت المهمة، وتنصرف " لبنى" إلى أقدارها السعيدة، تقود سيارتها التي ادخرت ثمنها من مرتبها، والذي تضاعف في العامين

الأخيرين في مكتب الاستثمار العقاري الذي افتتحته مؤخرًا مشاركةً مع صديقة لها تعرفها جيدًا، وتعمل معها في نفس البنك صباحًا، تتوجه مثلًا إلى حيث ضيوفها الأجانب في الفندق الكبير، وصورة شقيقتها لا تفارقها، تبكي سلمى شقاها وتقوقعها في البيت معظم الوقت، بينما تحضر لبنى جلسات المؤتمرات والندوات التي ينتدبها البنك لحضورها والمشاركة فيها داخل مصر وخارجها، فكثيرًا ما سافرت لبنى إلى بلاد جديدة، وأقامت في فنادق رائعة الجمال، وعاشت حياة المديرين اللامعة، ورجعت متوجة بالنجاح والانتصارات والمتعة وبعض من الترف.

الأمر الذي دفعها إلى الإقدام على خطوتها التالية لتأكيد استقلاليتها، فعزمت على الاستقلال بمسكن خاص بها، وأعلنت ذلك لأسرتها، ففزعت أمها واستعانت عليها بشقيقتها سلمى وزوجها حسام، كذلك شقيقها الأكبر "مجدي" والأصغر "وائل"، وجمعتهم عليها في يوم مشهود من أيام الجُمع، وولولت الأم شاكية باكية، تندب حظها في ابنتها الصغرى العاصية الشاردة دومًا، ذات المرافئ البعيدة

:يعني إنتِ رفضتي الجواز وفضَّلتي عليه شغلك وقولتي مفيش في الرجالة خير وسكتنا، مع إن فيه ستات كتير بتشتغل وتتجوز عادي، زي مرات أخوكِ مثلًا، كتمت حسرتي على شبابك في قلبي وسكت، ودلوقتي عايزة قال إيه تستقلي بنفسك وتعيشي لوحدك؟!

صحيح أبوكِ مات بس أنا لسه عايشة، تسمحي تقوليلي الناس هتقول عليكِ إيه؟! هيقولوا إيه على واحدة عايشة بطولها وأمها واخواتها حسهم في الدنيا؟ يا بنتي ارحمينا وارحمي سمعتنا، إنتِ ٣٥ سنة، كبرتي بقى ومبقتيش صغيرة.

كم أرادت أن تصرخ في وجه أمها تخبرها أننا في زحام الحياة نحتاج إلى حياة، وأنها ليست نسخة من أحد، لا هي "سلمى" ولا هي "نهاد" زوجة شقيقها مجدي، هي "لبنى عبد ربه سلامة"، نسخة واحدة مكررة من نفسها فقط، و تفاقمت المشكلة بل إنها انفجرت مدوية في مجتمع العائلة، وألقى كل فرد بدلوه، وأحدث كلٌ منهم بكلماته في نفسها جروحًا وندبات، بعضها سطحي وكثيرها غائر، لكنها صمدت لكل الانتقادات، وتحملت كل الاعتراضات، وكانت أقوى حجتها على سلامة منطقها هو أن شقيقها وائل، والذي تخرج منذ عامين، ومازال يُقيم مع والدته سيتزوج من خطيبته في نفس الشقة، فما الداعي للتكدس جميعهم فوق رأس العروس؟

كما أن ظروف عملها تتطلب منها أن تعمل في الصباح والمساء، وتحتاج بعض الراحة في مسكن هادئ بعيد عن صخب الأطفال، وزحام الزوار والضيوف في كل الأوقات، ومنزل الأم

هو منزل الأسرة الذي يجتمع فيه الكل، ولا يخلو من أبناء مجدي وأبناء سلمى، فكيف لها أن تستريح ساعة في الأصيل لتستطيع مواصلة المساء وسط هذا الضجيج؟! استعانت عليهم بالحُجة والمنطق دون إعلان رغبتها الحقيقية في الاستقلال عنهم؛ لأنها تجد نفسها وحيدة مُتفردة بينهم، لها مفرداتها الخاصة وأفكارها الأكثر خصوصية.

فشلت كل المحاولات معها فكان الحل الأسلم الذي اقترحه وائل وأيده أخوتها الكبار وقبلت به الأم مُرغمة، هو أن تستقل "لبنى" بمسكن خاص كما تريد، ولكن في نفس العمارة التي تقيم فيها سلمى، لتكون قريبة منها ترعاها وتنتبه إلى حالها، وتقف أولًا بأول على مستجدات حياة شقيقتها الثائرة "لبنى الطائشة" ذات الأفكار الشاذة.

"برج المراقبة" الوظيفة الجديدة التى وُكِلت إلى سلمى، لكنها قبلتها صاغرة، وهكذا استأجرت لبنى بنظام الإيجار الجديد الشقة المواجهة لشقيقتها في منطقة الكوربة التي تعشقها، وأثثتها على النحو الذي تريد، ولطخت جدارنها بألوان صاخبة تعشقها، وأصبحت حينها امرأة مستقلة كما أرادت، وطوال تلك الخمسة وثلاثون عامًا ظل القلب عازفًا عن الخضوع لرجل، حتى كان لقاؤها به.

إنه "سيف الدين عمران"، الرجل الذي ظهر فجأة في حياتها فأيقظ المارد النائم في أعماقها البعيدة، شاءت الأقدار أن تتعرف

إليه في أحد المؤتمرات خارج البلاد، حين أسدى إليها معروفًا وأنهى مشكلة إدارية طرأت على ندوتها الخاصة على هامش المؤتمر.

خفق قلبها وارتج بعنف لحضوره الطاغي، فكانت خَفقَتُه تأكيدًا جديدًا على استقلالها ورفضها لعبودية الزواج والأولاد

عرفته رجلًا مصريًّا مُهذبًا، لبق الحديث، مُرتب الأفكار، ذا رؤًى مختلفة، دَمِثَ الخلق، "جنتل مان"، وضعه الاجتماعي مميز، وثقافته لا حدود لها، قارئ نَهِم، ومفكر بدرجة فيلسوف، أحبته متزوجًا، له أبناؤه وزوجته كاتبة مشهورة، جميلة الخُلق والخلقة، حاولت الابتعاد عن عالمه الساحر، لكنها ولأول مرة يخونها قلبها، وتأبى مشاعرها التزحزح عن عالمه النابض بالحيوية.

وقفت تراقبه من بعيد، وفي صمت هادئ، فهمت أنه لن يستطيع التخلي عن زوجته وأولاده ليتزوج بها، فلم يمنعها ذلك من خوض التجربة حتى المياه العميقة، وبررت استسلامها لنفسها أنه لا حاجة لها للزواج والإنجاب ومصائبهما، مادامت قد اختارت "الحرية" من البداية، لقد عاشت سنواتها بعد التخرج لا يشغلها شيء سوى العلم، ودراسة اللغات والكمبيوتر، ودورات المحاسبة وإدارة الأعمال، التفتت تُؤمن مستقبلها المادي وتحقق النجاح والتميز في حياتها العملية، فلم تعرف العبث ولم تتورط في علاقات غرامية.

وصمدت لكل محاولات الإغراء والتوريط، التي تعرضت لها من زملائها ومن تعرفت عليهم من الرجال بحكم العمل أو الزمالة، لأنها قد اختارت الحرية وليس التحرر بمعناه المبتذل، ثم ظهر سيف الدين في سمائها، فكان كوكبًا ناريًّا يغري بالاقتحام، تعلم أن الطريق إليه مسدود، فالرجل متزوج عاشق لزوجته، وغير مُستعد للتخلي عنها، لكن لبنى قد قررت ألا تضحي بالحب بعد أن عثرت عليه من أجل هذه الاعتبارات التافهة، لقد اختارت حياتها ولم تسمح لأحد بأن يختار لها شيئًا، فلا مفر إذن من أن تقبل الحب إذا تعذر الزواج، فلتستمتع بحبها وحياتها وحُريتها.

تعرفت إليه أكثر، طلبت صداقته ووده وسعت إليهما دون التطرق إلى ما هو أكثر، حتى لا ينزعج منها فيُسرع بالفرار، عيَّنته استشاريًّا في مكتب الاستثمار العقاري الخاص بها، وصار من الطبيعي والمنطقي أن يجمعهما وقت العمل ومهامه، وفي ظلال ذلك اتسعت آمامها آفاقًا جديدة، أوسع وأرحب لم تدخلها من قبل، عرفت بهجة الحب واللهفة على المحبوب، والشوق إلى حديثه والابتهاج برفقته، عرفت الخضوع الإرادي لرجل لا يقهرها بالزواج ويكبلها بمسئولياته ويُقيدها بالاحتياج المادي له.

عرفت الأمسيات الجميلة في المطاعم الراقية، والنزهات

الخلوية في السيارة، والرحلات المفاجئة إلى الجونة والغردقة صيفًا، وإلى الأقصر وأسوان شتاءً، عرفت الإفطار على الكورنيش فجرًا، والسهر ليلًا على صخرة المقطم، بل إن الأمر امتد إلى السفر معه إلى أوروبا في رحلات قصيرة، لا تزيد عن الأربعة أيام، وخلال كل ذلك لم يتطرق أحدهما إلى تعريف العلاقة التي تربطهما أو تحديدها في عنوان واضح محدد، هل هي صداقة أم أنها شيءٌ آخر؟.

وطوال ذلك كله كانت سعيدة مُمتلئة بالبهجة والحيوية، كزهرة برية أنعشها الندى فنمتْ وتفتحت بتلاتُها، لا يُكدر عليها بعض أوقاتها سوى انزعاج أمها، وإحساسها المستمر بالقلق عليها، وعلى سنواتها التي تمضي دون زواج.

كما أن إشراك سلمى لها في مشكلاتها كان يُكدرها، وأصبح يُزعجها بحق، فقد تفاقمت مشكلاتها مع حسام، وصار كلٌ منهما يعيش في جزيرة مُنعزلة، وكل ما يجمعهما هو سقف واحد لبيت خرب، لا حب فيه ولا عشرة، ثم هجرها حسام نهائيًّا في الفراش، وبلا سبب مفهوم أقدم على الزواج عرفيًّا من زميلته في العمل، أرملة حسناء تصغره بسبع سنوات، توفى زوجها فجأة في حادث سيارة تاركًا إياها وحيدة، لا أبناء ولا سند، كيف يرحل الوقح عن امرأة فاتنة مثلها تفيض أنوثة وجمالًا ودلالًا؟!

اكتشفت سلمى أمره حين وقعت عيناها على نسخته من عقد الزواج، وتُقسم أنه قد تركه في موضعه في أحد جيوب بدلته لأنه أرادها أن تعلم، فتثور وتهيج لكرامتها وتطلب الطلاق وقد فعلت

فما كان منه غير أنه أسرع يُلبي رغبتها مُطالبًا إياها بالتنازل عن كافة حقوقها، مُكتفيًا بمبلغ شهري يُرسله لها كحوالة بريدية، أسرعت لبنى تحجز لشقيقتها موعدًا عند طبيب نفسي، فقد هزلت وفقدت الكثير من وزنها، كما أن نزيفًا شهريًّا قد لازمها كنتيجة طبيعية لاختلال هرموناتها الأنثوية.

وهكذا مضت سنوات أربع، كل عام فيها يُضيف إلى نجاحها العملي رصيدًا جديدًا، ويخصم في نفس الوقت من شبابها وملاحتها رصيدًا آخر، ويستنزف من مشاعرها نحو سيف والتي باتت مُستعرة، لا تكفيها نمطية الصداقة ولا ترويها حدودها، فقد بدأت تتمنى أن يُصارحها بحبه، بل تمادت في أمنيتها وصارت ترغب أن يتزوجها ولو في السر.

فقد اقتربت منه بالحد الذي عرفت فيه حقيقة زواجه، فالرجل يبدو سعيدًا، مُحبًّا لزوجته عاشقًا لحياته معها مُحافظًا على بيته وسمعة أبناءه، لكن لا شيء من ذلك كله ذو جوهر حقيقي، لقد أتتها الإجابة من المياه العميقة الراكدة داخل دهاليز قلبه، لقد

أحب زوجته فيما مضى، وتزوجها عن حب وافتتان زواجًا رومانسيًّا أثمر عن أطفال كالملائكة، لكنها تغيرت وتبدلت أحوالها وانصرفت عنه، غير عابئة بمشاعره كرجل، حين علا نجمها وذاع صيتها، وصارت كاتبة مشهورة يُشار لها بالبنان، وتُنتج أعمالها في السينما والتلفاز.

يرافقها هو داعمًا مساندًا لها في ندواتها وحفلات توقيع أعمالها، والتي تتصدر دومًا قائمة الأعلى مبيعًا، إلا أنها لا تشعر به وبوجوده ولا تنتظر رفقته، فما أن تدلف إلى قاعة الندوة حتى تنتشي وتفرد ريشها الملون الساحر كالطاووس، ويلتف حولها الحضور في إجلال وهيبة كما تلتف الكواكب حول الشمس، الكل يسير في فلكها يَسبَحون، والكل لكلمتها والتفاتتها ورغبتها ينفِّذون.

عاتبته ولامته كثيرًا حين صار يغيب عن صالونها ومُنتداها الأدبي، أو يعتذر عن مرافقتها إلى حفل التوقيع هذا أو ذاك، مُتعللًا بأعذار وأسباب تراها هي واهية ويراها هو معقولة، أراد أن يحتفظ بعلاقته بها في أجواء صحية لا تُفسدها الشهرة أو صخبها، لكنها أبت وضغطت وضغطت ثم ضغطت أكثر لتعرف ما وراء انصرافه وانعزاله وتغيبه، فانفجر مُخبرًا إياها بحقيقة ما يشعر، فاتهمته بضيق الأفق، ولعنت غيرة الرجال التي تمكنت منه وأصابته في مقتل، ثم استدارت منصرفة لتظهر بعدها بساعتين على

شاشة التلفاز، بوجهها المشرق كشمسٍ ساطعةٍ تُجري مقابلة على قناة فضائية عن روايتها الأخيرة، والتي فازت بجائزة الدولة التقديرية.

اشتعل نجمها وصار شمسًا أحرقت حبه لها ورغبتها في إسعاده، ليست غيرة أو حقدًا يُحركه نحوها كما اتهمته، لكنه عوز، وافتقار لدفء حبٍ كان يعتقده متينًا صلبًا، غير قابل للانكسار أو الانكماش أو الانحصار، لكنها كانت أوهامًا، فقد تبدلت "شهيرة الغامري" إلى أنثى أخرى لا يعرفها، علَّمته تجربته معها أن يمقت الحب، بل وأن يفر منه فرار السليم من الأجرب، فهو ما أودى به إلى التهلكة، صار "سيف" كالعطشان اللاهث، الفار هربًا من واحة " لبنى" الوافرة، وما أكثر الماء فيها لكنه لا يراه، فقد لُدغ من جحر الهوى مرة فأقسم ألا يُلدغ ثانيةً.

فليستمر زوجًا لشهيرة، أبًا مخلصًا لأطفالهما، لكنه كان قد قتل في نفسه كل ميل لعاطفة تجره نحوها، وكل تيار لهوىً يجرفه في اتجاهها، لم يرغب في الطلاق أو يفكر فيه حفاظًا على وحدة البيت، وترابط الأبناء، وصونًا لحبيبته السابقة وزوجته الحالية من وصف مشين قد يطولها، كأن يُقال عنها أنها امرأة حمقاء أو مجنونة طائشة.

رأتها لبنى أنانية غافلة عن حقيقة عرفتها هي طوال الليالي التي قضتها ساهرة، لم يعرف النوم فيها طريقًا إلى عينيها، تشرد

بعيدًا تفكر في سيف الدين عمران ولا حيلة لها سوى أن تحبه أكثر، وتؤمن برجولته واختلافه أكثر وأكثر، أي عذر هناك يمكن أن يكون لامرأة تركل بكل قدميها ذلك القصر المنيف، والنعمة السابغة، والهناء المقيم، حين يضعها رجلها الذي أحبته في قلبه ويذود عنها بكل ما يستطيع، ويحميها من أي شر حتى لو أن مبعثه نفسها المتمردة.

لن تنسى كلمات سيف حين سألته، ألا تتألم؟ ألا يزورك وجع يقضُّ مرقدك؟ أي طاقة تلك التي تجعلك تتحمل الهوان وتستمر في حياة كصحراء جرداء مع امرأة تتخذك برفانًا؟ وتتجمل بوجود خاتم الزواج منك في إصبعها كما تتجمل بمساحيق التجميل؟

فأجابها: بعض الأوجاع هي ضريبة الوفاء المفرط، ثم لاذ بالصمت وما عاد يُحدثها عن شهيرة الغامري أبدًا، ولم يعد من اللائق أن تسأله هي عن أحوال بيته.

و استمر الثالوث الحائر على هذا الحال لسنوات أخرى، شهيرة تعلو ويعلو شأنها وتزداد المسافة الفاصلة بينها وبين سيف، بينما ينصرف هو عنها مُفرغًا كل شحنته من العواطف في علاقة قوية تجمعه بلبنى، علاقة تزداد قربًا ومتانة دون تصريح بشيء أو تلميح إلى شيء.

يُعرِّفها هو بالصداقة بينما تؤمن هي أنه عشق من نوع خاص، لا هي تجرؤ على الانفصال عنه والرحيل من كوكبه ولا هو بقادر على الاقتراب أكثر، تسعد هي بوجوده العميق في حياتها، ويسعد هو بوجودها الغائر في حياته، تستمهل نفسها إذا ما عاتبتها وقرَّعها ضميرها على تحمُّل وضع أصبحت تراه شاذًّا، فلا هي متزوجة ولا هي حرة، ولا هي امرأته ولا هي غير ذلك، أقنعت نفسها المتداعية أنه لابد وسينتصر لحبها ويعود إليها فاتحًا ذراعيه مُستجيبًا لنداء قلبها، وسيُحقق لها أمنيتها الوحيدة وتصير مدام " سيف الدين عمران " في وقت ما، طال أو قصُر، لكنها ستنتظر حتى يأتي الوقت المناسب الذي يستطيع فيه رجُلها الإقدام على ذلك، ولتتمتع الآن به ومعه على القدر المتاح لها حاليًا.

أرضاها قرارها، وبرر لها استمرارها في علاقة بريئة لم تتلوث بالرذيلة، ولم تفسدها شهوة، إلى أن صحت ذات يومٍ أسود على نبأ مروع زلزل كيانها، وهز عرش أمنِها واستقرار سريرتها، لقد مات الرجل الأوحد الذي أحبته واستكانت معه لما يقرب من عشر سنوات، فجأة خلت حياتها منه ووجدت نفسها عاجزة عن كل شيء، عاجزة حتى عن الصراخ والبكاء والولولة عليه.

تجمدت الدموع في مقلتيها، وارتجفت أطرافها وبرُد جسدها،

فقد كان يُحدثها ليلًا، وسهرا معًا يتناقشان في الفيلم الأجنبي الذي شاهداه معًا في قاعة السينما التي افتُتِحت حديثًا بالقرب من مكتبهما، تناولا العشاء معًا بعد انتهاء السينما، ثم ركبت سيارتها عائدة إلى شقتها فرن هاتفها المحمول فور وصولها، جاءها صوته هادئًا ليطمئن عليها، لقد قدَّر الوقت اللازم لوصولها إلى بيتها بمنتهى الدقة.

تبادلا التحية ثم اعتذر هو عن متابعة المكالمة، فعليه التحدث إلى ابنته ذات الستة عشر ربيعًا عن ما يجول في صدرها من مشاعر بريئة تجاه زميلها في الدراسة، وعليه أيضًا المرور على النادي لإحضار ابنه الصغير من تدريب الكارتيه، ثم عاود الاتصال بها فور استقراره في غرفة المكتب بجوار المدفأة التي يعشقها وطال بينهما الحديث حتى أدركهما آذان الفجر، فانصرف كلٌ منهما إلى حيث ينام، لكن سيفًا لم يستيقظ، أدركه قضاء الله وقدره أثناء النوم، وحسبُها أنه مات مُتوضئًا مُصليًا.

أعياها الأمر وأدمى قلبها أنها لن تستطيع أن تراه ثانيةً، نعيُّه في الجريدة خال من اسمها، فمن تكون هي بالنسبة له؟ تعجَّبت من سخرية القدر، فشهيرة الغامري تقف لتتلقى العزاء في الرجل الوحيد الذي أحبته لُبنى سلامة، وكانت هي الحقيقة الكبرى في حياته، لكنها حقيقة غاصت في المياه العميقة.

تجهمت الدنيا لها وساءت صحتها وحالتها العصبية، وصار مزاجها عكر، نصحتها شريكتها في مكتب الاستثمار العقاري بالسفر إلى مكان بعيد، استجابت وطارت إلى ماليزيا، الزيارة التي اتفقت مع سيف على القيام بها في الصيف القادم، لكن القدر لم يمهلهما لتحقيقها، غابت هناك ثلاثة شهور، وحين عادت كان القنوط قد استقر في أعماقها.

وواصلت حياتها بلا حماس أو شغف، ثم وجدت أن رغبتها في العمل قد غابت، ومتعتها السابقة فيه قد اختفت فاستقالت، واكتفت بالعمل المسائي في مكتبها، ثم باعت نصيبها فيه إلى شريكتها، واكتفت بالحصول على فائدة شهرية من حصيلة أموالها التي أودعتها وديعة في أحد البنوك.

رحل سيف ورحلت معه حياتها وغايتها، وانحصر الشعاع المنير الذي طالما أضاء سنواتها العشر الأخيرة، تطول بها الوحدة في مسكنها الخالي الصامت، في حين تضج شقة شقيقتها سلمى بالصخب في كل الأوقات، تشاركهم صخبهم مرغمة في بعض الأوقات، لكنها سرعان ما تستأذن عائدة إلى شقتها، إلى وحدتها، إلى قوقعتها، هاربة من اندماج كامل وانغماس نافذ في حياة شقيقتها المشحونة دائمًا بالشواغل والاهتمامات، تطول لياليها في الفراش

البارد فتُسرع إلى التدفئ بحرارة الذكرى، ذكرى حب استغرق زهرة عمرها كله، وخلَّفها بعده كالزهرة التي جفت وغاض رحيقها.

أما حياتها التي طالما هنَّأت نفسها عليها وعلى جرأتها في اختيارها، فقد باتت تتشكك في صحتها حين وجدت نفسها تجلس في مسكنها وحيدة تتابع التلفاز في ملل، تتطلع إلى محمولها الذي نادرًا ما تسمع رنينه، عسى أن يتذكرها أحد معارفها أو زملائها فيتصل بها للدردشة قليلًا عن أحوال الحياة، تترقب أن يتذكرها مجدي أو وائل شقيقيها، أو يطرق أحدهما بابها ليؤنس بعض وحدتها لكن هيهات، فالحياة مشاغل.

زاد الأمر سوءًا حين توفت والدتها وجف نبع الحنان وانقطع عنها، هرولت إلى شقيقتها تبكي بحرقة، ثم سقطت فجأة فاقدة الوعي بين الأبناء، حملها أكبرهم واستقرت في سرير أختها، وأسرع الأوسط واستدعى لها الطبيب الذي أوصاها بالراحة وتجنب الوحدة وضرورة الانغماس في الحياة، فوجئت أن أطفال شقيقتها صاروا شبابًا وأن أرواحهم حلوة، نقية وطازجة، وها هم قد تباروا جميعهم في العناية بها، وتقديم المتاح لهم لإخراجها من وحدتها وعزلتها وحياتها الخاوية على عروشها.

أصبحوا لا يسمحون لها بتناول الغداء والعشاء إلا معهم،

تقضي المساء معهم باسمة الثغر، ترافقهم كل جمعة إلى النادي أو إلى رحلة قصيرة إلى السينما أو المكتبات، ترتاد المحلات والمولات لمساعدتهم في شراء ما يحتاجون من ملابس وأدوات، اكتشفت أن " كارلا " الابنة الصغرى لشقيقتها سلمى، تلك الفتاة المراهقة، ابنة الألفين كما تُناديها أمها وصديقاتها، موسوعة حية متنقلة للكتب والروايات، مكتبة وثائقية متحركة للقديم والجديد، شغلتها كارلا والتصقت بها، وجدت لبنى نفسها سعيدة راضية بحُسن علاقتها بأبناء شقيقتها، وقربهم منها، وقربها من عوالمهم المختلفة، وصارت تتساءل: كيف ضاقت من قبل بهؤلاء الأحباء؟ كيف باعدت بينها وبينهم هربًا من مشاكلهم وصخبهم وهم لا يضمرون لها إلا أنبل وأشرف العواطف؟

تعجبت من حُكمها على الأمور من منظور واحد، ومن اتجاه عقيم، كيف كرهت حياتهم من قبل بصخبها وضجيجها ومشاكلها، مع أنها هذه هي "الحياة" الحقيقية بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، وما عداها فهو صمت ووحدة وسكون الموت.

صدَقت في قرارها ونفذته، وصارت تندمج أكثر وتنغمس أكثر في حياة " عمرو وياسين وكارلا " كنز شقيقتها سلمى وغنيمتها، تلك الشقيقة التي طالما أحبت لبنى وأرادتها أن تكون

ضلعًا ثابتًا أساسيًا في حياتها، تستعين بها ومعها على مصاعب الدنيا ونوازل القدر، ها هي لبنى تستيقظ هذا الصباح، ودبيب جديد من النشاط المفاجئ ينبض في خلاياها، ترتدي ملابسها وتشرب قهوتها الصباحية على عجل، ثم غادرت مسكنها وطرقت باب سلمى مستفهمة عن عمرو، فلديهما موعد سري خصها به دون غيرها، سيقدمها اليوم لجميلته "وعد" تلك الرقيقة العذبة، ملائكية القلب التي سكنت فؤاده واستوطنته بلا استئذان.

تأبطت لبنى ذراعه القوى، وأدركت كم صار شابًّا يافعًا، ممشوق القوام، رياضي البنيان، يسُّر الناظرين، ثم لوحت بيدها لشقيقتها، ونزلت الدرج فرِحة، وسلمى تراقبها وتتأمل بعض الشعيرات البيضاء القليلة التي طفت في مؤخرة رأسها، تقاوم إحساسًا خفيًّا بالرثاء لها، ويهتف باطنها بالدعاء لشقيقتها بأن يهبها الله ذات يوم قريب من ينقذها من الوحدة والخواء، ويعينها على جفاف حياتها "المستقلة "، وكلها رجاء ألا يطول انتظار لبنى.

نعمة بحمد الله

obeikan.com

رشا شمس

كاتبة وقاصة مصرية، نشأتُ وتربيتُ في أطهر بقاع الأرض، مكة المباركة.

عرفني القراء حين صدرت لي مجموعة قصصية كاملة بعنوان (قلوب واجفة)، كانت ومازالت والحمد لله الأكثر مبيعاً ضمن إصدارات دار الشهد للنشر والتوزيع في معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠١٧م.

حاصلة على بكالريوس في علم الميكروبيولوجي من جامعة عين شمس بتقدير عام جيد جدا، كما عملتُ آثناء دراستي الجامعية كصحفية في مؤسسة أخبار اليوم.

حاصلة على دبلومة في تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها من جامعة كامبريدج ١٩٩٧م، تتلمذ على يديّ مئات الأجانب العاشقين للغة العربية وفنونها وآدابها.

حاصلة على دبلومة في الأدب المقارن وعلوم الدراما من جامعة كامبريدج ٢٠٠٠م.

شاركتُ في ترجمة بعض روائع من الأدب العربي إلى لغات أخرى.

في عام ٢٠٠٨م حصلتُ على دبلومة في الإرشاد النفسي و آليات ضبط و تعديل السلوك من جامعة عين شمس.

نُشرلي عدة مقالات عن الإسلام، نشأته وانتشاره، آدابه وعلومه في عدد من الصحف و المجلات الأجنبية.

عضو مؤسس لمبادرة نساء مبدعات للعمل الأدبي مع دار الشهد للنشر و التوزيع، تلك المبادرة معنية بتقديم المواهب و الأقلام الأدبية المميزة من كافة آرجاء الوطن العربي والتي قُدم من خلالها مجموعتان قصصيتان غاية في التميز و الاختلاف وهما وعد الروح و نون النسوة.

المنسق الإعلامي و عضو لجنة القراءة في دار الشهد للنشر و التوزيع.

أشارك في معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠١٨م برواية (واشتاقت إليكَ عيناي).

كما أشارك في معرض الشارقة الدولي للكتاب نوفمبر ٢٠١٧م، معرض دبي الدولي للكتاب ٢٠١٨م بمجموعة قصصية

من العيار الثقيل بعنوان (تنهدات حارة) من إصدار دار جُميرا للنشر و التوزيع.

أعشق القراءة و الأدب، وتربية الطيور و خاصة العصافير و الكناريا، أهوى ركوب الخيل و الاسكواش، الموسيقى و آلتي المفضلة "البيانو" و " الناي "، عاشقة للنادي الأهلي و منتخب مصر لكرة القدم.

حكمتي التي اؤمن بها جدًا: ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط.

أُمنيتي التي أسعى إلى تحقيقها هي زيارة أكبر عدد من عواصم العالم و المدن المشهورة بالفن و المتاحف و المكتبات العملاقة و أرجو أن يمِّن الله عليَّ بالصلاة في المسجد الأقصى ذات يوم.

الرابط المباشر لحساب الفيس بوك الخاص بي:

https://www.faceboo.com/rshams1

obeikan.com